تعقيب

ردّاً على قراءة عاطف الشاعر لـ«كعب آخيل»

ليس النقض نقداً

قراءتي لأفكار أدونيس وطه حسين والجابري لا صلة لها بالرجوع إلى امجاد الماضي وتجاوزها؛ فالكتاب يصدر عن غائية لا تنتمي إلى ماضوية آفلة، بل إلى انفتاح وتنوير يتشاكلان مع فاعلية العلم الذي ما زالت سلطانيته ممثّلة بالمركزية الغربية

خلدون الشمعة

أكتب هذا التعقيب على مقال عاطف الشاعر: «خلدون الشمعة في ‹كعب آخيل›: محاولة لقلب الطاولة المعرفيّة» (العربي الجديد، 07 أيلول/ سبتمبر 2021)، وذلك بغرض التصويب تحديداً؛ إذ ليس في تلك القراءة، للأسف الشديد، ما يُغري بالسجال أو يستدعيه.

الكتاب: «كعب آخيل: النقد الثقافي والنقض المعرفي» يدور حول دور العلم والتنوير الذي ينتمي إلى المركزية الغربيّة في نقض ما لم يُعتبر دائماً حقيقة ناجزة في مدوّنة النقد الثقافي العربي. النقد هنا يتقاطع مع النقض: النقد تأويل، والنقض برهان. يبدأ التقاطب - لمن لا يعلم - مع الشاعر جون كيتس، عَلَم الحركة الرومانسية الإنكليزية (1795 - 1821)، الذي اتهم نيوتن بتدمير ما تنطوي عليه شعرية قوس قزح عندما رأى أنّ هذه الشعرية حصيلة لانعكاس ضوء أبيض اللون. الاستقطاب هنا، أو ربما المواجهة، هما بين الشعر والعلم، وليس بين الهامش العربي والمركز الغربي. وأمّا كعب آخيل، فهو كلمة مفتاحية، بارادِيم، أو استعارة، أو مجاز توضيحي يشير إلى بؤرة الضعف في النص، وهذا التحديد يجعل من الممكن رصد صيرورة النقد قبل أن يتحوّل إلى نقض معرفي. وأحد الأمثلة على ذلك نقض كارل بوبر لادعاء الفرويدية والماركسية بأنّ كلاً منهما يشكّل علماً قائماً بذاته، علماً قادراً على تفسير كلّ شيء رغم اختلاف المكان والزمان.

بهذا المعنى تقوم توطئة الكتاب بتفعيل النص، بدءاً من تحديد بؤرة الضعف والانطلاق منها إلى صيرورة التحوّل من النقد إلى النقض. ولهذا، فإن الإشارة إلى وجود مقدّمة بدلاً من توطئة في التعليق الذي نحن بصدده تحتاج إلى تصويب. لا تختلف التوطئة عن المقدّمة كثيراً، ولكنّها أشدّ جلاءً ووضوحاً. ولأن التوطئة بوصلة القراءة، يتعيّن أن تكون غائيتها ماثلةً في كلّ فصل من الكتاب. لا يمكن قراءة النص والحفاظ على غائيته دون الانطلاق من ضوابط مباطنة للبوصلة النقدية. وأشدّد هنا على أنّ في كل فصل من الكتاب محاولة لضبط إيقاع واحد للنص.

أدونيس يكتب عن ثابت ومتحوّل يزعم الأب بولس نويا المشرف على أطروحته والذي يكتب أدونيس في إهدائه له أنه «رمز للخروج من حد المملوكية إلى حد الحرية»، يزعم أنه لا يمكن نقد الأدب العربي إلّا بنقد الإسلام. كعب آخيل يكمن هنا في أنّ الأدب العربي، خلافاً لما يقول أدونيس والأب نويا، يبدأ بالمعلّقات. ولهذا فضلاً عن أسباب أخرى، يصير ربط الأدب العربي بالدين ربطاً مفتعلاً يباطن الرغبة في تحويل الحوار، أو ربما السجال، إلى نقار ديكة طائفيّ عقيم، أي يظلّ بعيداً عن الصواب. الأدب العربي بمعلّقاته وخمرياته ليس مرتبطاً بالدين بأي حال، كما أن الفصل المطوّل الذي يعقده طه حسين في كتابه «الوان» الصادر عن «دار المعارف» بمصر (1952) لفكرة الثابت والمتحوّل، هو سعي منه لتأكيد نسبتها لواضعها أوغست كونت (1798 - 1857)، صانع سوسيولوجيا العصر الحديث ومبتكر الوضعية Positivism، المذهب الفلسفي الذي يُعنى بالظواهر والوقائع اليقينية بعيداً عن التجريد.

وأزعم هنا اكتشافي شخصياً دراسة طه حسين لأصول فكرة الثابت والمتحوّل في فكر عالم الاجتماع الفرنسي أوغست كونت الذي تحدّث عن ثابت اجتماعي social statics ومتحوّل اجتماعي social dynamics. الثابت يمثّل محاولة للوصول إلى قوانين التعايش Coexistence، والمتحوّل يمثّل محاولة للوصول إلى قوانين التغيّر Change التاريخي. بين كتاب «الوان» لطه حسين 1952 والجزء الأوّل «الأصول» من كتاب أدونيس «الثابت والمتحوّل: بحث في الاتّباع والإبداع عند العرب» قرابة ربع قرن (بيروت، دار العودة 1974). أدونيس يتبنّى الفكرة وكأنّه صانعها، بينما ينسب الأب نويا الفكرة لنفسه، ويقول إنه كان يتمنّى أن يطبّقها بنفسه. أمّا طه حسين فيحاول تطبيق فكر أوغست كونت على الأدب العربي على نحو يذكّرنا بمحاولته تطبيق الشك الديكارتي. وعلى ذلك فإن التطرّق لهذا الموضوع ليس كما يدّعي المراجع: «انتقاء يميل أحياناً إلى شيء

تمثال آخيل في المتحف البريطاني (دان كيتوو/ Getty)

> يتبنّى أدونيس فكرة الثابت والمتحوّل وكأنه صانعها

من التعسُّف في ما يتعلّق باتجاهات مهمّة كالتي طرحها طه حسين وأدونيس ومحمد عابد الجابري». طه حسين يُطرح هنا في الكتاب نقيضاً وليس قريناً لأدونيس، نقيضاً يعنى بنسبية ما لله لله وما لقيصر لقيصر. مشكلة النسبية إلى مصدر محدّد تتطوّر لدى البحث في نقد آخر يوجّهه أدونيس للعربي عندما يقول إنّ لغته تكتبه دون نسبة المقولة إلى هايدغر؛ الفيلسوف الألماني الذي يقول الكلام نفسه ولكن في معرض الفخر باللغتين الألمانية واليونانية. وتكمن المفارقة بين الطرفين في كونها لا تُطرح في كتابي باي قدر من التعسُّف، لأنّ هذا لا يمسّ فقط بمحاولتي أن أكون ناقداً موضوعياً، بل بباطن فكرة الكتاب أصلاً وبيشوّه غائيته. تقول نظرة المعلّق: «أجد نفسي أمام أطروحة غير مقنعة بقراءة الشمعة لأفكار طه حسين وأدونيس ومحمد عابد الجابري». ثم يعلّل صاحب النظرة ذلك بالقول: «لا يكفي الرجوع لأمجاد الماضي الأدبية والفلسفية للتغطية عليها ولتجاوزها». قراءتي لأفكار هؤلاء الثلاثة لا علاقة لها بهذا التعالم النفاخي والكوميدي، أي لا صلة لها بالرجوع إلى أمجاد الماضي وتجاوزها. الكتاب يصدر عن غائية لا تنتمي في المآل الأخير إلى ماضوية آفلة، بل إلى انفتاح وتنوير يتشاكلان - شئنا أو أبينا - مع فاعلية العلم الذي ما زالت سلطانيته ممثلة بالمركزية الغربية هنا والآن.

أصل إلى محمد عابد الجابري لأوضّح أنّ التطرّق إليه يتّصل بالتطوّر الذي حصل في الإنسانيات المعاصرة ولم ينقّط تنقيطاً بعد trickle down ليصل إلى الدولة العميقة، أي ليصير نقضاً معرفياً شائعاً للنقد الثقافي. موضوع هذا التطوّر هو تخليص الفلسفة من الدين. رجال الدين ناهضوا الفلسفة على مر العصور وأصبحت الفلسفة في مظانها المعاصرة، كما أوضحتُ، فلسفة عربية وليس إسلامية، كما أشاع أرنست رينان (1823 - 1892)، الذي أخذ عنه محمد عابد الجابري. في الفصل الخاص بهذا الموضوع إشارة إلى دور جورج طرابيشي في الكشف عن الدور الذي لعبه رينان، الذي أصرّ على أسلمة الفلسفة ودعاها «فلسفة إسلامية» رغبة منه في تفنيد الدين وليس إعلاء شأن الفلسفة. يقول رينان: «تعاليم الإسلام تتنافى مع البحث والنظر الطليق وإنها، تبعاً لهذا، لم تأخذ بيد العلم ولم تنهض بالفلسفة».

(ناقد سوري مقيم في لندن)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

الجزء والكلّ

تدعوني شخصنة التعليق إلى التأكيد أنّ موقفي الشامل من نتاج أدونيس ومحمد عابد الجابري وطه حسين يعيد كلّ البعد عن خطاب شائع مشوب بالاستسهال. نقد الجزء أو نقضه لا يعني موقفاً شاملاً من شاعر من وزن أدونيس، أو فيلسوف من طراز محمد عابد الجابري. ولعلّ المثير للاستغراب إسقاط المعلّق اسم صادق جلال العظم من بين الايقونات الثلاث التي يسير الكتاب كنهها، والاكتفاء بالإشارة إلى كلّ من الطيب صالح وجورج طرابيشي.

إطلالة

السؤال الذي يجب أن يطرح

لماذا لا نقرأ؟

ها هي مكتبات بيع الكتب في سورية قد أخذت تغلق وتتحوّل لبيع أي سلعة أخرى غيرها، وثمة من يريد أن يطفئ تلك الجمرة الصغيرة الباقية

ممدوح عزام

السؤال السائد في الكتب والصحافة عامة هو: «لماذا نقرأ؟»، والحقيقة أنه ليس سؤالاً شعبياً في عالمنا العربي، وهو معضلة عصيّة لم تناقش على المستويات الوطنية قط، ولهذا فقد ظلّت في النطاق الثقافي وحده، واقتصرت على مديح القراءة (وهي جديرة بالمديح) والتشجيع عليها من قِبَل الكتّاب والشعراء والمفكّرين دون جدوى حقيقية. ولهذا فإن السؤال الذي يجب أن يُطرح هو: لماذا لا نقرأ؟

كان إيان وات قد بيّن في كتابه «نشوء الرواية» أن توفّر الوقت والنور مثلاً، إضافة إلى الوفرة البسيطة التي بدأت تتراكم من رأس المال، كانا من العوامل التي ساعدت على انتشار القراءة من جهة، ونشوء فن الرواية من جهة ثانية في إنكلترا القرن الثامن عشر. كانت النساء - اللواتي توفّر لهنّ الوقت بعد أن ارتحن من «الواجبات المنزلية من غزل وحياكة وخبز وتخمير وشموع وصابون، إذ صارت تُصنع خارج المنزل، ويمكن شراؤها»، كما يقول وات - هنّ من نهضن بمهمّات القراءة.

من الصعب استعادة تلك الشروط في بلد مثل سورية اليوم. ليس بسبب عدم توفرها، بل لسبب آخر أكثر خطورة، هو أننا نكاد نعود إلى ما قبل تلك الشروط.

لا يمكن لعامل الوقت أن يكون مساعداً في تنشيط القراءة، بل إن الوقت زائد عن حاجة الناس جداً، وهناك بطالة هائلة تجعل مئات الآلاف يعيشون في وقت «ضائع» لا يعملون فيه أي شيء مفيد، إذ إنه وقت فارغ أجوف ومثقوب لا يمكن ملؤه لا بالقراءة ولا بغيرها، ولا يبحث الناس عنه في أيّة زاوية أو ساحة أو فضاء، ومن الصعب تعويض الزمن الضروري للقراءة في أوقات أخرى. إذا كانت الصناعة الحديثة قد وفّرت النور للناس، في حين كان من الصعب الحصول على الشموع للإضاءة بسبب غلاء أسعاره، فإن الحال هنا يعود بنا إلى ما قبل النور. تغيب كهرباء الإنارة في البيوت والأماكن العامة، وتغيب شروط التدفئة في الشتاء، أو التكييف في الصيف الحار، بسبب نقص الوقود، بل إن الشموع نفسها صارت غالية الثمن. وفي ظلّ الدخول الضئيلة المحدودة التي يلتهمها غلاء متوحّش ينال أسعار كلّ شيء بما في ذلك الكتب - حيث يمكن أن يصل سعر النسخة الواحدة من أي كتاب إلى خُمس راتب موظّف، وفي ظل انعدام وجود مكتبات عامّة يمكن أن تغطّي حاجة القراء ممّن لا يستطيعون شراء الكتب، لا تستطيع القراءة أن تنشط.

> من الصعب استعادة شروط القراءة في بلد مثل سورية اليوم

ومن الغريب أن ينشط الكتّاب في الحقيقة، ولكنّ معظمهم يرتضي بالنسبة الأقلّ من القراء، أملاً أن يزداد عددهم ذات يوم. وبقدر ما يمكن للعوامل الاقتصادية أن تكون هنا معطّلة، فإن العوامل السياسية المولدة للقلق والخوف على الحاضر والمستقبل وانتشار السلاح والفلتان الأمني وانعدام أفق المستقبل أمام الناس هي من القضايا التي تدمّر رغبتهم في القراءة، أو استعدادهم لاقتناء الكتب.

«لماذا لا نقرأ؟»، حسناً ها هي مكتبات بيع الكتب في سورية قد أخذت تغلق وتتحوّل لبيع أي سلعة أخرى غيرها، وثمة من يريد أن يطفئ تلك الجمرة الصغيرة الباقية لدى أولئك المغامرين الذين ما زالوا يشترون الكتب ويقرؤون.

(روائي من سورية)

مكتبة في دمشق، 2012 (Getty)

قصائد

أعرفها كما يعرفُ النوتيّ بحْرَه

عندما وهبتُكِ البحيرة

شوقي عبد الأمير

قصائد قصيرة الى نادو

رعويّة

عصا الراعي سياجُ
السكاكينُ تُسمّنُ الخراف
لا مكانَ للرعاةِ على موائدِ نُحومها.

تنمو القطعانُ
عندما تصيرُ الخارطةُ كلأً.

يخافُ الراعي على قطيعهِ
من مجيءِ الذّئب
وعلى نفسهِ
من غياب الذئب.

اعتراف

أنا غيمةٌ لا ترى السماء
البراريّ ترضعُ ظلّي.

الليلُ جدارٌ بيني
وبيني.

لن أحملَ ذراعاً
صارت شرفةً.

لن أعودَ من رحيلٍ
أنا جسدُه.

هذا الآتي طوفانٌ
إيه يا سفينتي خذيني.

جسد

لم يدخلْهُ إلهٌ لا شيطان
المفازةُ التي ضاعا فيها
طافتْ به المدائنُ والملاحم
بحّارٌ لم يبقَ منه إلا البحر
صرختْ به في الحارات وخلف التوابيت
أودعتهُ ثلاجاتُ الهزائمِ والموتى
صنعتْ منهُ كَمَادةً للجرح
وقُفّازاً للفجيعة
ولم يكن سوى ضربةٍ ممحاة.
أقفلتهُ،
اقامتْ فيهِ عقوداً ومنارات
رأتْ شَعْبَ مرْجانٍ ومتاهات مأسورة
وطويلاً كانت تنظرُ إليه
كإله يُبعثُ ليروي تعاليمَه
هدهدتْهُ بأغاني الرعاة
رضعتْهُ بالسّنابل والمناجل
والسّقوف المحفورة بالآيات وقلائد الملكات
وهبتْهُ سنينَ مجاعات ووداعات
ولم يزلْ يمنعُ من ضرعٍ أزرق.

لا أحد يلمسُ تخومه
لا أحد يُدرك برقّةَ ورعدَه
أحفورٌ طيفيٌ عثر عليه نبيٌّ ضال
فوق أرارات
سماءٌ أصيبتْ بطلقِ ناريّ
فيها تطيرُ البحارُ القديمةُ والغرقى
يصلّحُ في ليالي الوحشة والبوح، لتمويه
الهزائم الأليفة كالقطط
والجنائزُ في رايات وبطاقات أعراس
ويسهرُ على حماية الآيات الكريمة
من سجْع الكُهّان
جسدُها.

حجاب

نادو
تستبدلُ ربطةَ شعرها
بغيمةٍ زرقاءَ.

طيلسان

الأبيض طيلسانُ جلال الدّين
الضمير الغائب
عندما لا يُشبهُ الأزرقُ
عنقَ البجعة.

الصمتُ قوارير شفافة لمختبرات التنصّت
أضابير مختومة بطَرائيات خلفاء الفتوح
في المدائن حيث تُنازعُ أدناء الرجيمات
المآئر المطعّمةَ بالآيات تكويرها وانتصابها.

(شاعر من العراق)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

ديبورا كور، كولاج رقمي

فعاليات

تقام ضمن فعاليات الدورة الثالثة من مهرجان «مسارات المسرح» التي تنطلق اليوم في مدينة المهدية التونسية، ندوة فكرية بعنوان **المسرح التونسي والتحولات الاجتماعية** يشارك فيها كلّ من **آمنة الرميلي** (الصورة)، و**بغدادي عون**، و**وليد الدغسني**، و**محمد الكشو**، و**الناصر عبد الدايم**، و**محمد الهادي الفرحاني**.

يُفتتح عند السادسة من مساء الأحد المقبل في «بيت المعمار» بالعاصمة المصرية معرض **مطابقة غامضة** الذي يتواصل حتى نهاية الشهر الجاري. يتضمّن المعرض بعض المشاريع والدراسات للمواقع التراثية المصرية واستعراض تاريخ تأهيلها، وهي من تقديم طلبة من «مدرسة القاهرة للتراث»، وهم: **لمى توفيق**، و**حسن السجيني**، و**تقي ماجد**، و**مريم الكوة**، و**مروان مدحت**، و**سينار الدمرداش**.

يُعرض عند السابعة والنصف من مساء الاربعاء المقبل، في «مؤسسة عبد المحسن القطان» برام الله، فيلم **آخر من رآهم** (2019) للمخرجة الإيطالية **سارة سوما**. يستكشف الفيلم حياة افراد عائلة دوراتي الاربعة، في اليوم الذي سبق حادثة السطو على بيتهم، والتي انتهت بمقتلهم جميعاً بطريقة ماساوية.

تنظّم **دارة الفنون** في عمّان عند السادسة من مساء الثلاثاء المقبل لقاءً يجمع الفنانة التونسية **نادية كعبي لينكي** والفنانَيْن الفلسطينيين **رائد إبراهيم** و**رولا حلواني**. يركّز الحوار، الذي يديره **يزن اشقر**، على اعمالهم التي تستكشف **العلاقات بين كلّ من الأشياء والذكريات والراسمالية والاستعمار**.